

المجلد: 06 / العدد: 01 جوان (2022)، ص 316/324

حجاجية المثل الشعبي في الشمعة والدهاليز للطاهر وطار

The argumentative in the popular proverb "The Candle and the Paths" by Al-Taher Watar

د. فريدة بن عاشور

benfari@yahoo.com

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

(الجزائر)

تاريخ النشر: 2022/06/02

تاريخ القبول: 2021/12/5

تاريخ الاستلام: 2021/06/22

ملخص:

توظيف التراث سمة بارزة في الكتابات الإبداعية على اختلافها، حتى الروائية منها. وهو ما نلاحظ حضوره عند الروائي "الطاهر وطار"، خاصة في روايته "الشمعة والدهاليز"؛ حيث احتوت على أنماط التراث الشعبي المختلفة سجل فيها المثل الشعبي حضوره المكثف. وسنبحث الجانب الحجاجي للأمثال الشعبية انطلاقاً من كون الحجاج كمنظورية لغوية تنطلق من أنّ اللغة تخضع في تركيبها إلى آليات تمكّنها من النهوض بوظيفتها الحجاجية، وعليه فالحجاج موجود في كلّ النصوص.

وتهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على مختلف العلاقات الحجاجية الموجودة في البنية اللغوية للأمثال الشعبية، وذلك بدراسة البنية اللغوية من جهة، والبنية الدلالية المنطقية من جهة أخرى. وقد أسفر البحث على أنّ الأمثال الشعبية، من خلال بنيتها اللغوية والعلاقات المنطقية التي تحتويها، تعدّ من مرتكزات الحجاج القوية التي تمنح مستعملها قوة سلطوية تحوّل لهم التأثير في الآخرين وإقناعهم.

كلمات مفتاحية: الحجاج ، الأمثال الشعبية ، العلاقات الحجاجية ، الشمعة والدهاليز، الإقناع.

Abstract:

Creative writings of all kinds are characterized by the employment of heritage, and this includes the novel as it appears with the novelist "Al-Taher Watar", especially in his novel "The Candle and The Dark Corridors", where it contained various patterns of folklore, as the folk proverb. We will discuss the argumentative aspect of popular proverbs, based on the fact that argumentation is a linguistic theory in which language has an argumentative function, and therefore argument is present in all texts. The argumentative relationship contains a large number of logical semantic relations, and therefore it can be found for any proverbial saying.

This is what we will apply in this poem by studying both linguistic and logical semantic structures. The research revealed that popular proverbs contain strong arguments that give their users an authoritarian power that allows them to influence others and convince them.

Keywords: argumentative; popular proverbs; argumentative relations; candle and vestibules; persuasion.

مقدمة :

دأب الروائيون الجزائريون على توظيف التراث بمختلف أنواعه في نصوصهم الروائية، لغايات متعددة منها ما هو مرتبط بالجانب الأصلي المتعلق بإثبات الهوية ومنها ما هو مرتبط بالجانب الفني و الجمالي. وما كان توجه الروائي الجزائري إلى توظيف التراث يتم بطريقة اعتباطية وإنما يتم عن وعي وإدراك تامين، ويُعد الطاهر و طار من أكثر الروائيين الجزائريين الذين سعوا إلى الاعتراف من التراث الشعبي الجزائري، ولعل روايته "الشمعة و الدهاليز"¹ تعدّ الأكثر احتواءً على أنماط التراث الشعبي المختلفة من أمثال ومعتقدات ومرددات شعبية. وعليه سنبحث في العنصر الأكثر حضوراً في الرواية ألا وهو المثل الشعبي، وذلك بالبحث في حجاجة الأمثال الموظفة في الرواية سعياً منا للتأكيد على أنّ الحجاج كنظرية لغوية حديثة امتد ليلامس الأمثال كغيرها من النصوص الأخرى.

وإذا كانت النظرية الحجاجية تنطلق من فكرة مفادها "أنا نتكلم بقصد التأثير" فإنّ التّاص لا يلجأ إلى توظيف الأمثال دون القصد إلى التأثير في القارئ وحمله على الاقتناع بالأفكار المطروحة على مستوى النصّ الروائي من جهة، وعلى مستوى الشخصيات الناطقة بها من جهة أخرى.

ولأنّ العلاقة الحجاجية تستوعب عدداً كبيراً من العلائق الدلالية المنطقية كالشرطية و السببية و الاستنتاجية والتبريرية والتفسيرية وغيرها فإنه يمكن إيجاد علاقة حجاجية بالنسبة لأي قول مثلي سواء تعلق الأمر بالعلاقة الحجاجية داخل المثل أي انطلاقاً من بنينه الداخلية أو تعلق الأمر بعلاقة حجاجية خارجية أو أن يقوم المثل بدور إقناعي². وعليه سنبحث في هذا المقال مختلف العلاقات الحجاجية للأمثال الشعبية الواردة في "الشمعة و الدهاليز" وذلك بدراسة البنية اللغوية من جهة و البنية الدلالية المنطقية من جهة أخرى.

1- ضبط المفاهيم:

وقبل البحث في حجاجة الأمثال الشعبية ارتأينا الوقوف عند بعض المحطات لتحديد المفاهيم التي انطلقنا منها في هذه الدراسة، ولوضع المتلقي في جوّها العام وهي كالآتي:

مفهوم المثل الشعبي:

يعدّ المثل الشعبي رافد مهم من روافد الأدب الشعبي، الذي يصدره الشعب فيعبر عن وجدانه ويمثّل تفكيره، ويعكس اتجاهاته ومستوياته الحضارية، وهو عصارة الأجيال المتلاحقة، وموروثاتها من أفعال وأقوال. ورد في لسان العرب أنّ المثل هو الشيء الذي يضرب للشيء مثلاً فيجعله مثله، ويقال تمثل فلان ضرب مثلاً، وقد يكون المثل بمعنى العبرة³. وعرفه المرزوقي بقوله: "المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها، فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول، فتنتقل عمّا وردت فيه، إلى كلّ ما يصحّ قصده بها"⁴، وعليه فالمثل عبارة موجزة أطلقها شخص من عامة الناس في ظرف من الظروف ثم شاعت وأخذ الناس يتداولونها في مختلف المناسبات التي تشبه التي قيلت فيها لأول مرة.

وقد عرف أحمد أمين الأمثال الشعبية بأنها: "نوع من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكناية، ولا تكاد تخلو منه أمة من الأمم، ومزية الأمثال أنها تنبع من كلّ طبقات الشعب"⁵. فالمثل الشعبي لون أدبي تتوقّر فيه جملة من الشروط فيورد معاني حسنة في ألفاظ موجزة لا تخلو من صور بلاغية، ينبع من الشعب ويجيا بين أفواهه.

كما أوردت نبيلة إبراهيم تعريفاً للمثل ورد على لسان " فريديريك زايلر " ومما جاء فيه أنه: "القول الجاري على ألسنة الشعب، الذي يتميز بطابع تعليمي، وشكل أدبي مكتمل يسمو على أشكال التعبير المألوفة"⁶. وفي هذا التعريف يلخص خصائص المثل الشعبي المتمثلة في كونه: شعبي، تعليمي، أدبي، وأسمى من الكلام العادي المألوف.

إنّ حرص الأدباء على استحضار عناصر الأدب الشعبي، ومنها المثل، في نصوصهم الإبداعية نابع أساساً مما يميز به هذا الأدب؛ وهو قدرته على صياغة السلوك الإنساني في جمل قصيرة معبرة عن الظواهر الاجتماعية بطريقة تؤكد أنه استوعب البواعث النفسية المعقدة، وأنه استطاع أن يعبر بطريقة جيدة صالحة لكل الظروف رغم تطور الحياة وتغيّر الظروف.

مفهوم الحجاج:

ورد في لسان العرب "حَاجَّجْتُهُ أَحَاجُّهُ حِجَاجًا وَمُحَاجَّةً حَتَّى حَجَّجْتَهُ أَي غَلَبْتَهُ بِالْحُجِّجِ الَّتِي أَدْلِيَتْ بِهَا.. وَالْحِجَّةُ: الْبِرْهَانُ، وَقِيلَ: الْحِجَّةُ مَا دُوِّفِعَ بِهِ الْخِصْمُ"، ومنه فالحجاج خصومة بين طرفين يسعى فيها كل واحد إلى إحراز الغلبة باعتدال الحجج. كما عُرِفَ الحجاج بأنه "جملة من الحجج التي يُؤْتَى بها للبرهان على رأي أو إبطاله، أو هو طريقة تقديم الحجج والاستفادة منها"⁹، وبذلك حصر معنى الحجاج في الحجج وطريقة عرضها، وحسن توظيفها لصالح النتيجة المقصودة.

وكلمة argument مأخوذة من الفعل arguere التي تعني جعل الشيء واضحاً، لامعاً، ظاهراً. وهي بدورها من الجذر الإغريقي argues ويعني أيضاً لامعاً¹⁰. أما في اللغة الإنجليزية الحديثة فإن هذا المصطلح يشير إلى وجود اختلاف بين طرفين، ومحاولة كل واحد منها إقناع الآخر بوجهة نظره من خلال تقديم الأسباب أو العلة التي يراها حجة مدعمة أو داحضة لفكرة أو رأي أو سلوك ما¹¹. ومنه يتضح أن غاية الحجاج هي السعي إلى إقناع الآخرين بالاعتماد على الحجج والبراهين الممكنة.

ويذهب أبو بكر العزاوي إلى أن الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، ويتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تستنتج منها¹². وهذه النظرية تسعى لأن تبين أن اللغة تحمل، بصفة ذاتية وجوهية، وظيفة حجاجية، أي إن هذه الوظيفة مؤشر لها في بنية الأقوال نفسها، وفي معناها وفي مستوياتها المختلفة (الصوتي، الصرفي، التركيبي، المعجمي، الدلالي)¹³.

وبالتنظر إلى المفاهيم التي قُدمت للحجاج نجدها كثيرة ومتعددة، إلا أنها تكاد تتفق على أنه بذل الجهد لغاية الإقناع، وهو طائفة من تقنيات الخطاب التي تسعى إلى استمالة المتلقين إلى القضايا التي تعرض عليهم، أو إلى زيادة درجة تلك الاستمالة، وعليه فمجال الحجاج هو المحتمل والممكن والتقريبي والخلافي والمتوقع وغير المؤكد¹⁴.

إن الخطاب الحجاجي خطاب مختلف، يتميز عن غيره من الخطابات، وذلك بما يتمتع به من خصائص (المرونة، النسبية، التدرج، التراتبية) أهله لأن يحتل مكانة بارزة في مختلف الخطابات والمعارف والعلوم، من لغوية واجتماعية وتاريخية ونفسية واقتصادية وقانونية وتواصلية وغيرها، حتى قيل إنه من الصعب الحديث عن أي تواصل بدون حجاج¹⁵، ومنه يمكننا القول إن الحجاج حاضر في كل الخطابات، وعلى اختلافها.

2_ حجاجية الأمثال الشعبية الموظفة في الشمعة والدهاليز:

تميزت روايات الطاهر وطار بالحضور المكثف للتراث على اختلاف مشاربه: التاريخي والإسلامي والسياسي والإيديولوجي والشعبي والإنساني، فجاءت رواية "الشمعة والدهاليز" مشحونة بأنواع التراث المختلفة؛ حيث نجد الروائي قد وظف التراث على أوسع نطاق (نصوص قرآنية-أمثال شعبية-نصوص أدبية) ولعلّ الموروث الشعبي كان الأوفر حظاً من خلال توظيف الروائي للمرددات والمعتقدات والأمثال الشعبية.

وإن كان الناص قد عمد إلى توظيف الموروث الشعبي فإنه يؤكد على ما يضيفه على النص من مسحة جمالية خاصة وأنها نجد رواياته زاخرة بالموروث الشعبي بدءاً من "اللاز" وانتهاءً إلى "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي". ولأن الأمثال الشعبية هي الأكثر حضوراً في الرواية لا بد وأن يكون لهذا الحضور دلالاته الخاصة، وأن الروائي قد أطلقها على السنة شخصياته في مواقف معينة بغية الوصول إلى غايات محددة. ولعلّ أبرزها سعي الناص إلى التأثير في متلقيه باعتدال هذه النصوص التي أجمع المجتمع بكل طبقاته الاجتماعية و بمختلف مشاربهم الثقافية على قبول ما ورد فيها، واعتبارها مرجعية ثقافية نستند إليها في دعم أفكارنا وإضفاء نوع من الشرعية عليها نظراً لما تحظى به هذه الأمثال الشعبية من شعبية.

ونظراً لما يحظى به المثل من خصائص، فقد صُنِّف مع غيره من الشواهد ضمن الحجج الجاهزة التي تكسب الخطاب طاقة حجاجية عالية. وفي هذا المجال عُرِفَ المثل على أنه "حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويُراد استنتاج نهاية أحدهما بالتنظر إلى نهاية ماثلتها"¹⁶.

ويقوم المثل والخطاب الحجاجي بوظيفة إقناعية ذلك أن "من خصائص المثل أن له طابعا إقناعيا برهانياً: لأنه يساق للإقناع، ويرد حجة ودليلاً على صدق مساقه وصحة دعواه"¹⁷، وبذلك يلتقي المثل بالحجاج في الوظيفة الإقناعية، ومنه يمكننا القول إن الخطاب الحجاجي يستدعي المثل كآلية من آليات الإقناع.

وقد احتوت الرواية على اثني عشرة مثلاً¹⁸، أجازها وطار على ألسنة شخصياته للتدليل على صحة ما يعتقد ويدعو إليه، إنه يطالب المتلقي بمشاركته هذا الاعتقاد، وإن كانت مطالبته هذه "لا تكتسي صبغة الإكراه ولا تدرج على منهج القمع، وإنما تتبع في تحصيل غرضها سبلا استدلالية متنوعة تجرّ الغير إلى الاقتناع"¹⁹. وقيل البحث في حجاجة الأمثال الشعبية التي وُظفها وطار في روايته تجدر بنا الإشارة إلى أنّ العملية الحجاجية لا تقوم على الروابط والعوامل الحجاجية فقط²⁰ بل تسند على ضامن يربط بين الحجّة والنتيجة يعرف بالمبادئ الحجاجية، وهي مجموعة من المسلمات والأفكار والمعتقدات المشتركة بين أفراد مجموعة لغوية وبشرية معينة، والكلّ يسلم بصدقها وصحتها، كقولنا: العمل يؤدي إلى النجاح²¹. فالمبادئ الحجاجية بمثابة القواعد العامة التي تجعل حجاجاً ما ممكناً، كما أنّها تتسم بخصائص²²، تتمثل في كونها مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة داخل مجموعة بشرية، كما تتسم بالعمومية، والتدرجية، والنسبية.

خصائص المبادئ الحجاجية تتقاطع مع الخصائص المميزة للمثل الشعبي؛ ذلك أنه نتيجة تجارب مشتركة، يكرس جملة من الأفكار المسلم بها من طرف الجميع، وقد اعتاد الناس تقبّل مضامينها باعتبارها خلاصة تجارب العقلاء من الأجداد، كما أنه يمكن احتواء الخصائص الأخرى في كونه يتسم بالعمومية والتدرجية والنسبية.

فإذا أخذنا المثل الشعبي القائل: "الدوام يثقب الرخام" نجد أنه يشتمل على كلّ خصائص المبادئ الحجاجية. فهو يحمل فكرة مسلماً بها باعتبارها نتاج تجربة مشتركة، كما أنه يتسم بالعمومية إذ إنه يصلح للاستعمال في سياقات مختلفة ومتنوعة، ويقم علاقة تدرجية بين محمولين، فبقدر ما يتحقّق الأوّل يتحقّق الثاني والعكس صحيح، وعليه تظهر الخاصية التدرجية للمثل بقدر ما يكون الدوام بقدر ما يُثقب الرخام. أي إنه بقدر ما يكون الإصرار على تحقيق هدف بقدر ما يكون نجاح الإنسان في الوصول إلى تحقيق ذلك الهدف. أما نسبة هذا المثل فتظهر في إمكانية إبطاله ورفض تطبيقه باعتباره غير ملائم للسياق، أو يتم إبطاله باعتقاد مبدأ حجاجي آخر مناقض له فكما أنّ الإصرار على هدف ما يؤدي إلى تحقيقه، كذلك الإصرار على هدف ما لا يؤدي دوماً إلى تحقيقه.

وإذا كانت الأمثال، في القسم الأعظم منها، تتضمن مبادئ حجاجة عميقة، ويستشهد بها لغابات إقناعية إلا أنها ليست كلّها مبادئ حجاجة، إذ إن هناك أمثال تفتقر إلى أهم خاصية المبادئ الحجاجية وهما التدرج والتناسب فتوظف باعتبارها حججا وأدلة تخدم نتيجة معينة²³. وبعد الذي قلناه يمكننا البحث في أهم العلاقات الحجاجية التي تحتويها الأمثال الشعبية التي استحضرها وطار في نصه الروائي.

3_ العلاقات الحجاجية في الأمثال الشعبية:

إنّ العلاقة الحجاجية هي العلاقة التي تربط بين الحجّة والنتيجة، وهي تختلف بشكل جذري عن علاقة الاستلزام أو الاستنتاج المنطقي²⁴. والعلاقات التي تقوم بين الحجّة والنتيجة في الخطابات الحجاجية كثيرة ومتنوعة، والبنية اللغوية والفكرية للمثل تستوعب كثيراً من العلاقات ك: الشرطية، التفسيرية، التبريرية، وغيرها. وفي ما يأتي سنحاول الوقوف على أهم العلاقات الحجاجية التي احتوتها بعض الأمثال الشعبية الواردة في الرواية محلّ الدراسة.

1.3_ العلاقة السببية:

وتعدّ من أبرز العلاقات الحجاجية وأقدرها على التأثير في المتلقي؛ حيث يعتمد المتكلم إلى جعل بعض الأحداث أسباباً لأحداث أخرى، ويسم فعلاً بأنه نتيجة متوقعة لفعل سابق ويجعل موقفاً معيناً سبباً مباشراً لموقف لاحق، وفي هذا المجال تبرز في شكل علاقة سبب بنتيجة أو وسيلة بغاية²⁵.

ويندرج تحت هذه العلاقة الأمثال التي تبدأ بالأداة "اللي" وتتضمن استلزاماً لكنّه ليس استلزاماً صورياً منطقياً حتمياً، بل هو استلزام تداولي طبيعي²⁶. ولكن ليست كلّ الأمثال تخضع إلى علاقة الاستلزام كما يجعلها تتضمن علاقات أخرى غيرها. ومن بين تلك العلاقات نجد العلاقة السببية كما يظهر في المثل الشعبي القائل: "اللي ماعندوش حباب يزوروه لكّلاب". فيربط بين السبب والنتيجة بحيث يبدو أنّ "اللي ماعندوش حباب" الذين يقومون بزيارته فإنه ينتج عن ذلك أنّ "يزوروه لكّلاب". ويبدو أنّ المثل يوظف لفظي: حباب وكّلاب للدلالة على متانة العلاقات الاجتماعية بين الأقارب، وعليه تصبح دلالة المثل أنّ الذي ليس له أقارب أو أنّ علاقته بهم ضعيفة تكون زيارته من

أشخاص لا تربطه بهم علاقات متينة أو أنهم يكونون من أسوأ الناس؛ بحيث تكون العبارة الأولى سببا للوصول إلى نتيجة العبارة الثانية .

2.3_ علاقة عدم الاتفاق أو التناقض:

تُعد "حتى" من الروابط الحجاجية التي توّظف في الخطاب الحجاجي للربط بين قولين أو بين محتين، إذا اقترنت "حتى" بأداة الشرط "إذا" يصبح المجال مرتبطا بـ "حتى إذا" التي ترادف العبارة الحجاجية (meme si) والتي ترادف عبارة "وإن" التي يعتبرها ديكر (O.Ducrot) "بنية نحوية لغوية تميز بين دليل ممكن ودليل قاطع". ووجود العلاقة أ— حتى إذا— ب، يعني أن "ب" حجة ممكنة تقود إلى نتيجة ما. ولكن المتكلم يرفضها معتبرا إياها دليلا ممكنا لا قاطعا فإذا العبارة تقود المتلقي في نهاية الأمر إلى تناقض بين نتيجتين إحداهما يقود إليها الدليل الممكن والثانية يقود إليها الدليل القاطع، فتكون تبعا لذلك نتيجة الخطاب المقصودة²⁷.

فإذا أخذنا المثال التالي: "حُد بُثْ لَعُمُومَة وَلَوْ كَانَتْ بَايْرَة وَحُد الطَّرِيقُ المَعْلُومَة وَلَوْ كَانَتْ دَايْرَة" نجد هذا المثل وُظف عبارة "ولو كانت" ليقر بأن كون ابنة العم بايرة دليل ممكن لفائدة نتيجة هي إعراضه عن الزواج منها، ولكن عبارة "خذ بنت لعمومة" تدعو ضمنا إلى نتيجة مناقضة وهي الزواج منها. فالمثل إذن نفى أن يكون بوار ابنة العم دليلا على عدم الزواج منها، رافضا بذلك النتيجة التي يوصل إليها معتمدا الرابطة الحجاجي "ولو" ليثبت دليلا قاطعا ويؤكد نتيجة حاسمة، وهي الزواج من الفتاة والدليل القاطع هو كونها ابنة العم. فالمثل يكرس فكرة أن الرجل يتزوج ابنة عمه في كل الأحوال سواء كانت بايرة أو لم تكن.

والطاقة الحجاجية الكامنة في هذه البنية النحوية المشتملة على الرابط الحجاجي "لو كانت" على سبيل الافتراض أدت إلى رفض الدليل الممكن وهو عدم الزواج بابنة العم البائرة، وإثبات الدليل القاطع في فضاء الاحتمال وهو الزواج بابنة العم البائرة. وبالتنظر إلى الحجة التي يخدمها هذا المثل نجد أنها قائمة على الاحتمال، وهي التي تؤسس على حظوظ المرء في تحقيق أمر ما أو إنجاز حدث معين أو اتخاذ موقف محدد، وأن الأمر لا يعدو أن يكون في أغلب الحالات محتملا²⁸، وعليه فإن الأمر الذي يدعو إليه هذا المثل هو الزواج بابنة العم، أما الجانب المحتمل فيه فهو الزواج بابنة العم البائرة.

3.3_ العلاقة الشرطية (علاقة الاقتضاء):

وهي ذات طاقة حجاجية عالية لأنها تصل الحجة بالنتيجة لكنها تجعل الحجة تقتضي تلك النتيجة اقتضاء والعكس صحيح؛ بحيث تغدو العلاقة ضربا من التلازم بين الحجة والنتيجة، وهو ما لا توقعه سائر العلاقات حتى السببية، وهي تُبدي نوعا من الحتمية بين الحجة والنتيجة فتوحي بأن الأولى تقتضي الثانية والثانية تستدعي الأولى ضرورة وإن لم يكن الأمر كذلك. وأقدر الروابط الحجاجية على توفير هذا النوع من الصلات أدوات الشرط المختلفة التي تعتمد في الإقناع أو الحمل على الإذعان²⁹.

والاقتضاء في الجملة الشرطية متأني من قيام الجملة الشرطية على التلازم والتعلق السببي بين الشرط وجوابه، أي أن الشرط يستوجب ضرورة الجواب، وهو في الوقت ذاته مسبب لهذا الجواب أي أنه سبب لنتيجة هي الجواب³⁰. فإذا أخذنا المثل: "الدم إذا لم يكن يكندر"³¹ نجده قائما على التلازم بين الشرط وهو: "إذا لم يكن الدم" وجوابه "يكندر"، أي إن "الدم يكندر" هي نتيجة لسبب محدد وهو "إذا لم يكن". والجملة الشرطية من حيث وظيفتها الحجاجية تبين لنا قدرتها على توفير علاقة اقتضاء شكلي بين السبب والنتيجة، سبب يمثله الشرط ونتيجة يمثله الجواب على مستوى أول، وعلى توفر علاقة اقتضاء بين حجة يمثله الجواب والشرط معا، نتيجة يصرح بها المتكلم تارة ويخفيها أخرى³².

ومن الأمثال التي وردت في الرواية وتقوم على العلاقة الشرطية:

- قُض الرّاش تَنْشَف لِعُرُوقِ.

- أُخْرِج لُرْبِي عُرْيَانُ يَكْسِيكَ.

فكلا المثليين يتضمنان علاقة شرطية في صورة اقتضاء شكلي بين السبب والنتيجة، ففي المثل الأول يكون جملة الشرط (قُض الرّاش) سببا في الوصول إلى النتيجة الحتمية التي تتضمنها جملة جواب الشرط (تَنْشَف لِعُرُوقِ). كما أنه

يمكن اعتبار نص المثل كحجة لنتيجة مضمرة في محتوى المثل وهي الدعوة إلى معالجة المشاكل بالتظرف في أسبابها من أجل القضاء النهائي عليها. والأمر نفسه بالنسبة للمثل الثاني؛ حيث تقوم جملة الشرط (أُخْرِجْ لُرِي عُزَيَانُ) سببا للوصول إلى النتيجة (يَكْسِيكُ)، والنتيجة المضمرة التي يكرسها هذا المثل هي التزام الصراحة في التعامل. والملاحظ على هذين المثلين أنها يفتتحان بفعل أمر (قص، أخرج)، وكان بالإمكان أن يرادا بصيغة أخرى: إذا قَصَيْتُ الرَّاسَ تَشْفُفْ لَعُرُوثُ. إذا خَرَجْتُ لُرِي عُزَيَانُ يَكْسِيكُ.

بموجب تحافظ الصيغة الجديدة على المعنى الذي تتضمنه الصياغة الأولى، إلا أن الأمر يكسب الخطاب طاقة حجاجة أكبر. فالأمر أسلوب إنشائي ينتمي إلى صنف الأفعال التي وصفها "أوستين" (Austin) — (actes perlocutionnaires) الأقوال التي فيها إنجاز لأفعال معينة، لكنه إنجاز ضمني لأن صيغة الأمر تحمل معنى الدعوة، ومن ثمة تبدو صلته بالحجاج وثيقة لأنه يهدف إلى توجيه المتلقي إلى سلوك معين يحدده المتكلم.³³ إن إجراء الأمثال الشعبية في الرواية على ألسنة الشخصيات، ومجرد قيامها على صيغة الأمر له قيمة حجاجة واضحة، فالمثلان يحتويان على الفعلين: قص وأخرج، وهما يحملان الدعوة إلى القيام بالفعل، مما يضع الناطق بها في مصاف الحكماء الذين خبروا الحياة بما يكفي لإسداء النصيحة إلى الآخرين، كما أن الأمر يكسبهم هبة أو سلطة تمكنهم من التأثير في الآخرين وتوجيه سلوكهم والإذعان للمحتوى الذي يتطلبه المثل فيكون حقيقا بالطاعة. وفعل الأمر له قدرة على معاضدة الحجاج ومساندة المخاطب في سعيه إلى الإقناع والحمل على الإذعان؛ ذلك أن أسلوب الأمر نابض بالإثارة وقادر على تحريك الوجدان، خاصة وأنه يتحول للمتكلم الأمر سلطة من شأنها التأثير في المخاطب وإقناعه بفحوى الأمر.

وبعد الذي قلناه عن العلاقات الحجاجة الواردة في بعض الأمثال الشعبية ننتقل إلى الحديث عن مجال آخر يظهر لنا حجاجة المثل الشعبي، وذلك عندما لا يُستعمل المثل كمبدأ حجاجي، وإنما يُستعمل كحجة جاهزة الغاية منها إقناع المتلقي والتأثير فيه.

4_ المثل حجة جاهزة:

تمثل الحجج الجاهزة عند أرسطو في القوانين والشهود والاعترافات وأقوال الحكماء وترتبط بالخطابة القضائية. أما في خطابنا العربية فتمثل في تضمين الآيات القرآنية والأحاديث والأشعار والأمثال والحكم. وهذه الحجج تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها، ويتم اختيارها وتوجيهها إلى الغرض المرصودة للاستدلال عليه.³⁴ ويستعمل المثل كحجة جاهزة إذا افتقر إلى خصائص المبادئ الحجاجة؛ حيث لا يمكن اعتبار الأمثال مبادئ حجاجة وإنما تعتبر حججا جاهزة ذات قوة حجاجة عالية، وقد أدرجها أبو بكر الغزالي ضمن حجة السلطة. وحجة السلطة تستخدم أعمال شخص أو مجموعة أشخاص أو أحكامهم حجة على صحة أطروحة ما، وقد تكون الإجماع أو الرأي العام أو العلماء أو الفلاسفة أو الكهنة أو الأنبياء، وقد تكون غير شخصية مثل الفيزياء، العقيدة، الكتاب المقدس، وغيرها.³⁵

إن حجة السلطة كما يبدو مما تقدم، تتأق من الاتفاق والإجماع على فكرة ما، بحيث تكون هذه الفكرة صادرة عن مصدر غالبا ما يكون موثوقا فيه، أي الإجماع على صحتها، كذلك الأمثال الشعبية فهي حصيلة خيرات الشعوب وتجاربهم، تحظى بكثير من القبول والمصادقية ومن ثم يمكن اعتمادها كحجج جاهزة تُستحضر في الخطاب كوسيلة إقناع. ومن الأمثال الشعبية التي وردت في "الشمعة والدهاليز" كحجج جاهزة نذكر ما يأتي: (تَيْبُ³⁶ لاجار ولاخيب). يعبر هذا المثل عن الوضعية الاجتماعية التي يعيشها الأستاذ الشاعر، بطل الرواية، كما يعبر عن وحدته وعزلته حتى عن جيرانه، إذ إنه ليس له علاقات اجتماعية مما يجعل الآخرين يعتبرونه غريبا. (الزَيْنُ يُغِيضُ). قالتها العارم عند حديثها عن العسكري الفرنسي الذي احتالت عليه وكبلته واقتادته أسيرا. قالتها تحسرا على حالته، وذلك من باب الشفقة عليه، والتعاطف مع الجمال الذي يتجاوز الإحساس به الانتفاء الديني والعريقي. وقد قالتها المرأة لتعلل بكاءها على الجندي الذي أسرته.

- (شارف تحت الجلد). قبل في إطار الحديث عن الشاعر ليكرس فكرة عدم التناسب بين المظهر والحقيقة. وتبدو حقيقة المثل منطبقة مع الشاعر في تقطين: الأولى ترتبط بعدم التناسب بين سنه الكبير وجسمه الصغير الذي يخلف انطبعا بصغر سنه، والحقيقة أنه يكبر زملاءه في الدراسة بفارق سنتين لأنه بدأ التمدريس متأخرا. والثانية ترتبط بعدم التناسب بين سنه وتجربته، فبالرغم من صغر سنه إلا أن ظروف حياته جعلته يخوض تجارب عميقة وعديدة. إن هذه الأمثال الشعبية التي أجراها "وطار" على السنة شخصياته الروائية، والتي ليست من إنتاجها هي أيضا، بقدر ما هي منقولة على لسانها فقط، تُعدّ من دعائم الحجاج القويّة بحيث ترفع مستعملها إلى مكانة عليا، وتمنحهم قوة سلطوية، وهذه القوة مستمدة أساسا من سلطة المثل الشعبي في حدّ ذاته.

خاتمة:

كانت غاية البحث الكشف عن الطاقة الحجاجية الكامنة في الأمثال الشعبية، التي وظّفها الطاهر وطار في روايته "الشمعة والدهاليز"، وقد انطلقنا من محاد نظري ضبطنا فيه بعض المفاهيم الواردة، ثم بحثنا حجاجية الأمثال الشعبية من خلال العلاقات الحجاجية؛ حيث انطلقنا من كون العلاقات الحجاجية تقوم على مبادئ حجاجية تتقاطع مع خصائص المثل، وتمثلت هذه العلاقات في: العلاقة السببية، وعلاقة عدم الاتفاق، والعلاقة الشرطية، كما درسنا المثل باعتباره حجة جاهزة.

وآخر ما يمكننا قوله هو أنّ البحث في الجانب الحجاجي للأمثال الشعبية بالتظنر إلى بنيتها اللغوية والعلاقات المنطقية التي تحتويها، من شأنه أن يكشف عن الطاقات الحجاجية المختزنة في الأمثال الشعبية مما يجعلها تحظى باهتمام أكبر ويؤهلها لحضور أقوى في عملية التواصل التي لا تكون بدون حجاج ولا يكون الحجاج بدونها.

قائمة الإحالات:

- 1- الطاهر وطار: الشمعة والدهاليز، الجزائر، منشورات التبيين الجاحظية، 1995، د. ط. 1
- 2- أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، المغرب، وزارة الثقافة المغربية، 2007، د. ط. ص. 88.
- 3- ابن منظور: لسان العرب، لبنان، بيروت، دار صادر، ط 6، 2008، مادة (م ث ل).
- 4- السيوطي: الزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج1، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، 1986، د. ط. ص. 486.
- 5- نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، مصر، دار غريب، ط3، ص. 174، نقلا عن أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1953، ص. 61.
- 6- المرجع نفسه، ص. 175.
- 7- التلي بن الشيخ: منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، د. ط. ص. 21.
- 8- ابن منظور: لسان العرب، مادة (ح ج ج).
- 9- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982، د. ط. ص. 446.
- 10- عبد الرزاق بنور: جدل حول الخطابة والحجاج، تونس، الدار العربية للكتاب، 2008، د. ط. ص. 27.
- 11- حافظ اساعيلي علوي: الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، الأردن، عالم الكتاب الحديث، ط1، 2010، ص. 02.
- 12- أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، بيروت، مؤسسة الرحاب الحديثة، 2009، د. ط. ص. 21.
- 13- المرجع نفسه، ص. 07.
- 14- حافظ اساعيلي علوي: الحجاج مفهومه ومجالاته، ص. 04.
- 15- حسن مسكين: مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التاريخ إلى الحجاج، بيروت، مؤسسة الرحاب الحديثة، 2010، د. ط. ص. 155.
- 16- محمد العمري: في بلاغة الخطاب الاقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، المغرب، دار الثقافة، ط1، 1986، ص. 68-69.
- 17- عبد الهادي بن ظافر الشهري: آليات الحجاج وأدواته ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ص. 134.

- 18- الأمثال الواردة في الرواية وبالتزيتب هي: تيبب، لا جار ولا حبيب (ص 15)، الزين يغيض (ص 37)، الدوام يتقبب الرخام (ص 49)، شارف تحت الجلد (ص 54)، اللي تتلفته اجره (ص 77)، الدم إذا لم يحن يكندر (ص 110)، خذ بنت لعمومة ولو كانت بايرة، وخذ الطريق المعلومة ولو كانت دايرة (ص 111)، أخرج لربي عريان يكسيك (ص 119)، الزيت من الزيتونة والحوت من البحر (ص 124)، سبة ووالاتها حدور (ص 137)، اللي ما عندوش لحباب يزوروه لكلااب (ص 153)، قص الراس تنشف لعروق (ص 159).
- 19- طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط3، 2007، ص 38.
- 20- ثمة فرق بين العوامل الحجاجية والروابط الحجاجية، فالروابط الحجاجية تربط بين قولين، أو بين حجتين على الأصح أو أكثر. أما العوامل الحجاجية فهي لا تربط بين الحجة والنتيجة، ولكنها تقوم بمحصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية التي تكون لقول ما، ومن هذه العوامل: زما، تقريبا، كاد وكل أدوات القصر. ينظر أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص 33.
- 21- أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، ص 39.
- 22- المرجع نفسه، ص 37.
- 23- أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، ص 83.
- 24- المرجع السابق، ص 25.
- 25- سامية الديردي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني الهجري بنيتة وأساليبه، الأردن، عالم الكتاب الحديث، 2007، د.ط، ص 327.
- 26- أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، ص 76.
- 27- المرجع السابق، ص 359.
- 28- المرجع نفسه، ص 213.
- 29- المرجع نفسه، ص 335.
- 30- نفسه، الصفحة نفسها.
- 31- يكندر بمعنى يئن .
- 32- نفسه، ص 336.
- 33- نفسه، ص 149.
- 34- محمد العمري: في بلاغة الخطاب الاقتناعي، ص 65.
- 35- عبد الله صولة: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، تونس، الشركة التونسية للنشر، ط1، 2011، ص 52.
- 36- التيبب هو طائر ذو راحة كريمة تدعو الآخرين للنفور منه.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، المغرب، وزارة الثقافة المغربية، 2007.
- 2- أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، بيروت، مؤسسة الرحاب الحديثة، 2009.
- 3- بلحيا الطاهر: التراث الشعبي في الرواية الجزائرية، الجزائر، منشورات التبيين الجاهلية، 2000.
- 4- التلي بن الشيخ: منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، د.ت.
- 5- حافظ اساعيلي علوي: الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، الأردن، عالم الكتاب الحديث، ط1، 2010.
- 6- حسن مسكين: مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التاريخ إلى الحجاج، بيروت، مؤسسة الرحاب الحديثة، 2010.
- 7- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982.
- 8- سامية الديردي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني الهجري بنيتة وأساليبه، الأردن، عالم الكتاب الحديث، 2007.
- 9- السيوطي (عبد الرحمان جلال الدين): المزهرة في علوم اللغة العربية وأنواعها، ج1، صيدا، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، 1986، د.ط.

- 10- طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط3، 2007.
- 11- الطاهر وطار: الشمعة والدهاليز، الجزائر، منشورات التبيين، الجاحظية، 1995، د.ط.
- 12- عبد الرزاق بنور: جدل حول الخطابة والحجاج، تونس، الدار العربية للكتاب، 2008، د.ط.
- 13- عبد الله صولة: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، تونس، الشركة التونسية للنشر، ط1، 2011.
- 14- مُحمَّد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، المغرب، دار الثقافة، ط1، 1986.
- 15- نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، القاهرة، دار نهضة مصر، د.ط، د.ت.